مجلة الآداب واللغات المجلد (12) العدد(01) أفريل2026، ص.ص36-55

الشيفرة اللغوية بين التبليغ والتأثير مقاربة ابستمولوجية

The linguistic code between communication and influence: an epistemological approach

عبد السميع موفق 1*

جامعة محمد البشير الإبراهيمي – برج بوعريريج

abdessamiaa.mouffok@univ-bba.dz

تاريخ الإرسال:2025/12/17 تاريخ القبول:2025/12/31 تاريخ النشر:2026/04/16

الملخص:

يتناول هذا البحث الطبيعة المزدوجة للشفرة اللغوية وترنّحها الوظيفي بين التبليغ والتأثير من خلال مقاربة ابستمولوجية نقدية. ينطلق من التأسيس البنيوي السوسيري لمفهوم الشفرة ونموذج جاكبسون للوظائف اللغوية، مرورًا بالنظرية الإخبارية للمعنى والنموذج الإحالي، وصولًا إلى نظرية الأفعال الكلامية والبراغماتية اللسانية. وخلص البحث إلى أن الوظيفتين التبليغية والتأثيرية تتكاملان ديالكتيكيًا في الممارسة اللغوية الفعلية، وأن السياق التواصلي والمقام الخطابي هما المحددان الرئيسيان لغلبة إحدى الوظيفتين، مؤكدًا أن الشفرة اللغوية ليست محايدة بل محملة بأبعاد ثقافية وإيديولوجية تؤثر في إدراكنا للواقع.

الكلمات المفتاحية :

الشفرة اللغوية، التبليغ، التأثير، الأفعال الكلامية، التداولية اللسانية.

*المؤلف المراسل

Abstract:

This research examines the dual nature of linguistic code and its functional oscillation between communication and influence through a critical epistemological approach. It begins with the Saussurean structuralist foundation of the code concept and Jakobson's model of linguistic functions, proceeding through the informational theory of meaning and the referential model, culminating in speech act theory and linguistic pragmatics. The research concludes that communicative and persuasive functions are dialectically integrated in actual linguistic practice, and that communicative context and discursive situation are the primary determinants of functional dominance. It emphasizes that linguistic code is not neutral but laden with cultural and ideological dimensions that influence our perception of reality.

Keywords: *Linguistic Code, Communication, Influence, Speech Acts, Linguistic Pragmatics*

مقدمة:

إنّ اللغة من أكثر الظواهر الإنسانية تعقيدًا وثراءً، فهي ليست مجرد نسق من الإشارات والرموز الصوتية المتواضع عليها لنقل المعاني والأفكار، بل هي نظام شفري (Coding System) متكامل يحمل في طياته أبعادًا تواصلية وإيديولوجية وثقافية واجتماعية عميقة، وقد شغلت مسألة الوظيفة اللغوية الباحثين في حقول معرفية متعددة، من اللسانيات (Linguistics) إلى الفلسفة التحليلية(Analytical Philosophy) ، ومن السيميائيات (Semiotics) إلى علم النفس المعرفي(Cognitive Psychology) ، حيث تبلور سؤال جوهري حول ماهية الغاية الأساسية من استعمال اللغة: هل هي مجرد وسيلة للتبليغ (Communication)ونقل المعلومات، أم أنها أداة للتأثير (Influence) وصناعة القناعات في تشكيل الوعي الإنساني؟

إن الإشكالية المحورية التي يسعى هذا البحث إلى مقاربتها تتمحور حول الطبيعة المزدوجة للشفرة اللغوية وترنّحها الوظيفي بين بُعديْ التبليغ

والتأثير، فاللغة في بُعدها التبليغي تهدف إلى نقل المحتوى الإخباري (Informational Content)بأمانة ووضوح، بينما تسعى في بُعدها التأثيري إلى إحداث تغيير في موقف المتلقي ومعتقداته وسلوكه. وقد أثار هذا الازدواج الوظيفي جدلًا معرفيًا واسعًا بين مختلف المدارس اللسانية والفلسفية، من الوضعية المنطقية (Logical Positivism) التي ركّزت على الوظيفة المرجعية الإخبارية للغة، إلى البراغماتية اللسانية (Linguistic Pragmatics) التي أبرزت الأبعاد الفعلية والتأثيرية للخطاب.

تنطلق فرضيات هذا البحث من اعتبار أن الشفرة اللغوية تجمع بين الوظيفتين التبليغية والتأثيرية في تكامل ديالكتيك (Dialectical Integration) وأن التمييز بينهما يبقى إجرائيًا ومنهجيًا أكثر منه واقعيًا، حيث يصعب الفصل التام بين نقل المعنى والتأثير في المتلقي، كما يفترض البحث أن السياق التواصلي (Communicative Context) والمقام الخطابي هما المحدّدان الرئيسيان لغلبة إحدى الوظيفتين على الأخرى، وأن الشفرة اللغوية تخضع لآليات تشفير (Encoding) وفك تشفير (Decoding) معقدة تتداخل فيها العوامل اللسانية والمعرفية والثقافية والإيديولوجية.

يهدف هذا البحث إلى تقديم مقاربة ابستمولوجية (Epistemological Approach)نقدية لمفهوم الشفرة اللغوية ووظائفها، من خلال استقراء التصورات النظرية المختلفة التي تناولت هذه الإشكالية، وتحليل الآليات اللسانية والسيمائية التي تحكم عمليتي التبليغ والتأثير، وبيان نقاط التقاطع والتباين بينهما. كما يسعى البحث إلى الكشف عن التحولات الابستمولوجية التي شهدها فهمنا للشفرة اللغوية، من النموذج الميكانيكي البسيط للتواصل إلى النماذج التفاعلية والتداولية المعاصرة التي تأخذ بعين الاعتبار تعقيد العملية التواصلية وأبعادها المتشابكة.

حبث يعتمد هذا البحث على إجراءات الوصف والتحليل في رصد وتحليل المقولات النظرية والنماذج التفسيرية المختلفة، والمقارنة لإبراز التباينات والتقاطعات بين المقاربات المختلفة، في مساءلة الافتراضات الابستمولوجية الكامنة خلف كل تصور نظري. وسيتم توظيف مفاهيم ومقولات من حقول معرفية متعددة بهدف تقديم رؤية شمولية ومتكاملة لإشكالية البحث.

1- الشفرة اللغوية: المفهوم والخلفية النظرية:

1/1 - التأسيس البنيوي لمفهوم الشفرة اللغوية:

يُعدّ فرديناند دي سوسير (Ferdinand de Saussure) المؤسس الفعلي لمفهوم الشفرة اللغوية بمعناها العلمي الحديث، حيث أحدث ثورة معرفية في دراسة اللغة من خلال تمييزه الشهير بين اللسان (Langue) والكلام (Parole)فاللسان عند سوسير هو النظام المجرد من القواعد والعلاقات البنيوية التي تحكم اللغة، وهو بمثابة الشفرة الجماعية المشتركة بين أفراد المجتمع اللغوي، بينما الكلام هو الاستعمال الفردي الملموس لهذا النظام في مواقف تواصلية محددة[1]. وهذا التمييز المنهجي فتح الباب أمام دراسة اللغة كنسق من العلامات (Signs) التي تربط بين الدوال (Signifiers) والمدلولات (Signifieds)برابطة اعتباطية(Arbitrary) ، مما يعني أن العلاقة بين الصورة الصوتية والمفهوم الذهني ليست طبيعية بل ثقافية ومتواضع عليها[2].

لقد أسّس المنظور البنيوي السوسيري لفهم اللغة كشفرة مغلقة ومكتفية بذاتها، حيث تتحدد قيمة كل عنصر لغوي من خلال علاقاته المختلفة (Differential Relations)مع بقية عناصر النسق، وليس من خلال إحالته المباشرة على الواقع الخارجي.

لقد تبنّى رومان جاكبسون (Roman Jakobson) هذا المنظور وطوّره في نموذجه الشهير للوظائف اللغوية، حيث حدّد ستّ وظائف رئيسية للغة هي: الوظيفة المرجعية (Referential Function) المرتبطة بالسياق،

والوظيفة الانفعالية (Emotive Function) المرتبطة بالمرسِل، والوظيفة الإفهامية (Conative Function) المرتبطة بالمرسَل إليه، والوظيفة الشعرية (Poetic Function)المرتبطة بالرسالة ذاتها، والوظيفة الميتالغوية (Metalinguistic Function)المرتبطة بالشفرة، والوظيفة الانتباهية (Phatic Function)المرتبطة بقناة الاتصال[3].

وهذا التصنيف أظهر أن الشفرة اللغوية متعددة الوظائف وأن وظيفة التبليغ المحض ليست سوى إحدى الوظائف الممكنة، إلى جانب وظائف أخرى تتعلق بالتأثير والإقناع والتعبير عن الذات.

تأثّر اللسانيون البنيويون بالنموذج الرياضي للتواصل الذي وضعه كلود شانون وورن ويفر (Claude Shannon & Warren Weaver) في نظرية المعلومات(Information Theory) ، والذي يختزل عملية التواصل في سلسلة خطية من العناصر: المرسِل، الشفرة، الرسالة، القناة، فك الشفرة، المرسَل إليه[4].

غير أن هذا النموذج الميكانيكي تعرّض لانتقادات واسعة لكونه يتجاهل الطبيعة الديناميكية والتفاعلية للتواصل الإنساني، ويختزل اللغة في وظيفتها النقلية الإخبارية، متجاهلًا الأبعاد السياقية والتأويلية والتأثيرية التي تميّز الخطاب البشري عن مجرد نقل المعطيات[5].

2/1- البعد السيميائي للشفرة: من التدليل إلى التأويل:

ومع تطور الدراسات السيميائية على يد رواد من أمثال تشارلز ساندرس بيرس (Charles Sanders Peirce) وأمبرتو إيكو(Umberto Eco) ، تعمّق الفهم لطبيعة الشفرة اللغوية باعتبارها نظامًا تدليليًا معقدًا يتجاوز مجرد المطابقة الأحادية بين الدال والمدلول، حيث ميّز بيرس بين ثلاثة أنماط من العلامات: الأيقونة (Icon) التي تشبه ما تشير إليه، والمؤشر (Index) الذي يرتبط وجوديًا بمدلوله، والرمز (Symbol) الذي تكون علاقته بمدلوله اعتباطية

ومتواضعًا عليها[6]. وهذا التصنيف أبرز أن اللغة البشرية تعتمد أساسًا على البعد الرمزي، مما يعني أن الشفرة اللغوية ليست معطى طبيعيًا بل هي بناء اجتماعي وثقافي يخضع لقواعد جماعية متعارف عليها.

وقد طوّر أمبرتو إيكو مفهوم الشفرة في اتجاه أكثر انفتاحًا وديناميكية، حيث اعتبر أن عملية التواصل لا تقتصر على نقل معنى جاهز من المرسِل إلى المتلقي، بل هي عملية إنتاج دلالي (Signification Production) يشارك فيها المتلقي بفاعلية من خلال عمليات التأويل وبناء المعنى. فالشفرة عند إيكو ليست قاموسًا ثابتًا من المعاني المحددة سلفًا، بل هي مجموعة من القواعد والأعراف التي توجّه عملية التأويل دون أن تحددها بشكل نهائي[7]. حيث أنّ هذا المنظور حوّل الاهتمام من الشفرة كبنية ثابتة إلى عمليات التشفير وفك التشفير كممارسات تأويلية سياقية، مما فتح المجال أمام فهم أعمق لدور المتلقي في إنتاج المعنى ولعلاقة اللغة بالسياقات الثقافية والإيديولوجية.

2- التبليغ اللغوي: الوظيفة المرجعية والبعد الإخباري:

1/2- النظرية الإخبارية للمعنى والنموذج الإحالي:

تبلورت النظرية الإخبارية للمعنى (Informational Theory of Meaning) في إطار الفلسفة التحليلية والوضعية المنطقية، حيث اعتُبرت الوظيفة الأساسية للغة هي وصف الواقع والإخبار عن حالات الأشياء في العالم الخارجي. فقد ذهب برتراند راسل (Bertrand Russell) إلى أن اللغة المثالية يجب أن تكون مرآة صادقة للواقع، بحيث تتطابق بنيتها المنطقية مع بنية الوقائع التي تصفها، وأن القضايا اللغوية تكون ذات معنى فقط حين يمكن التحقق من صدقها أو كذبها بالرجوع إلى الواقع[8]. وهذا المنظور الإحالي (Referential Perspective) يختزل وظيفة اللغة في التبليغ الموضوعي للمعلومات، ويعتبر أن القيمة الدلالية للعبارات اللغوية تتحدد بمدى مطابقتها للوقائع الخارجية.

في السياق ذاته، طوّر لودفيغ فيتغنشتاين (Ludwig Wittgenstein) في مرحلته المبكرة، ولا سيما في كتابه: رسالة منطقية فلسفية (Tractatus Logico–Philosophicus)، نظرية تصويرية للغة (Picture Theory of Language) ترى أن القضايا اللغوية الأولية هي صور منطقية للوقائع الذرية في العالم، وأن بنية الجملة تعكس بنية الواقعة التي تصفها[9]. غير أن هذا التصور المثالي للغة باعتبارها مجرد أداة شفافة للإشارة إلى الواقع سرعان ما واجه صعوبات كبيرة، حيث أظهرت الممارسة اللغوية الفعلية أن جزءًا كبيرًا من استعمالاتنا اللغوية لا يمكن تفسيرها ضمن النموذج الإحالي الصرف، كالأسئلة والأوامر والتعبيرات الانفعالية والاستعارية والاستعمالات الشعرية والبلاغية.

حيث أدى الإفراط في التركيز على الوظيفة المرجعية للغة إلى إهمال الأبعاد الأخرى للخطاب، كما أنه اصطدم بمشكلة العبارات التي لها معنى دون أن تحيل على أشياء موجودة في الواقع، مثل العبارات الخيالية والأدبية والرياضية. كما أن هذا المنظور تجاهل حقيقة أن عملية التبليغ ذاتها لا تتم بطريقة محايدة وموضوعية تمامًا، بل تتأثر بالخلفيات المعرفية والثقافية والإيديولوجية لكل من المرسِل والمتلقي، مما يجعل التبليغ الخالص مجرد مثال نظري لا يتحقق بشكل كامل في الممارسة الفعلية للغة.

2/2- شروط نجاح العملية التبليغية:

من أجل أن تؤدي الشفرة اللغوية وظيفتها التبليغية بكفاءة، لا بد من توفر مجموعة من الشروط والمعايير التي حددها الباحثون في مجال التواصل واللسانيات. وأول هذه الشروط هو الاشتراك في الشفرة (Shared Code) بين المرسِل والمتلقي، بحيث يتقاسمان النسق اللغوي نفسه ويفهمان الدلالات المتواضع عليها للعلامات اللغوية المستعملة[10]. وهذا الشرط ليس بسيطًا كما يبدو، إذ إن الاشتراك في اللغة العامة لا يضمن بالضرورة الاشتراك في كل

الرموز والمصطلحات والمراجع الثقافية التي قد يوظفها الخطاب، مما يتطلب وجود خلفية معرفية مشتركة (Common Ground) تتجاوز مجرد معرفة قواعد اللغة.

أمّا الشرط الثاني فهو وضوح الرسالة (Message Clarity) وعدم الالتباس، بحيث تُصاغ العبارات بطريقة دقيقة لا تحتمل التأويلات المتضاربة. وقد أولى فلاسفة اللغة العادية (Ordinary Language Philosophy) اهتمامًا كبيرًا لظاهرة الغموض اللغوي (Ambiguity) وتعدّد المعاني، وميّزوا بين أنواع مختلفة من الغموض مثل الغموض المعجمي الناتج عن تعدد معاني للّفظ الواحد، والغموض التركيبي الناتج عن إمكانية تحليل بنية الجملة بأكثر من طريقة، والغموض الإحالي الناتج عن عدم وضوح ما تشير إليه الضمائر أو الإشاريات[11]. ولتجنب هذه الإشكالات يجب على مستعملي الخطابات ذات الطبيعة الإخبارية العلمية أو الإدارية أو القانونية استعمال مصطلحات محدّدة بدقة وتراكيب نحوية واضحة تقلل من احتمالات سوء الفهم.

3- التأثير اللغوي: البعد الإقناعي والفعل الكلامي:

1/3- نظرية الأفعال الكلامية (من القول إلى الفعل):

شكّلت نظرية الأفعال الكلامية (Speech Act Theory) التي وضع أسسها جون لانغشو أوستين (John Langshaw Austin) وطوّرها جون سيرل (John Searle) منعطفًا حاسمًا في فهم الوظيفة التأثيرية للغة. فقد لاحظ أوستين أن الكثير من العبارات اللغوية لا تهدف إلى وصف الواقع أو الإخبار عنه، بل إلى إنجاز أفعال وإحداث تغييرات في الوضع الاجتماعي أو النفسي للمتلقي، وهو ما أسماه بالأقوال الإنجازية (Performative Utterances)، مثل: "أعدك بالحضور"، "أعتذر عن التأخير"، "أعلن افتتاح الجلسة". هذه الأقوال لا تحتمل الصدق أو الكذب بالمعنى الإحالي، بل تُقيَّم بمعايير النجاح أو الفشل حسب توفر شروط الإنجاز المناسبة[12].

ثم تجاوز أوستين هذا التمييز الأولي ليقترح أن كل قول لغوي يتضمن ثلاثة مستويات من الفعل: الفعل القولي (Locutionary Act) المتمثل في إنتاج الأصوات وتركيب العبارة ودلالتها، والفعل الإنجازي (Illocutionary Act) المتمثل في القوة الإنجازية للقول كالوعد أو الأمر أو السؤال أو التحذير، والفعل التأثيري (Perlocutionary Act) المتمثل في الآثار الفعلية التي يُحدثها القول في المتلقي كالإقناع أو الإغضاب أو الحمل على فعل معين[13]. وهذا التحليل الثلاثي أظهر أن التأثير ليس عنصرًا عرضيًا في الاستعمال اللغوي، بل هو بعد جوهري في كل خطاب، حيث يسعى كل متكلم إلى تحقيق غاية تواصلية معينة من خلال كلامه.

طوّر جون سيرل هذه النظرية بوضع تصنيف منهجي للأفعال الإنجازية قسّمها إلى خمسة أصناف رئيسية: التقريريات (Assertives) التي تلتزم بصدق قضية معينة، والتوجيهيات (Directives) التي تحاول حمل المتلقي على فعل شيء ما، والالتزاميات (Commissives) التي يلتزم بها المتكلم بفعل مستقبلي، والتعبيريات (Expressives) التي تعبّر عن حالات نفسية، والإعلانات (Declarations) التي تُحدث تغييرًا في الوضع المؤسسي بمجرد النطق بها[14]. كل هذه الأصناف تُبرز أن اللغة ليست مجرد وسيلة لنقل المعلومات، بل هي أداة للفعل والتأثير في الواقع الاجتماعي والعلائقي.

2/3- الحجاج والبلاغة: استراتيجيات التأثير اللغوي:

تُعدّ البلاغة (Rhetoric) من أقدم العلوم التي اهتمت بالبعد التأثيري للغة، حيث عرّفها أرسطو (Aristotle) بأنها "القدرة على اكتشاف وسائل الإقناع الممكنة في كل موضوع"[15]. وقد ميّز أرسطو بين ثلاثة أنواع من البراهين البلاغية: الإيتوس (Ethos) المتعلق بمصداقية الخطيب، والباتوس (Pathos) المتعلق بإثارة انفعالات المتلقي، واللوغوس (Logos) المتعلق بالحجج العقلانية المقدمة في الخطاب[16]. هذا التصنيف يكشف عن أن التأثير

اللغوي لا يعتمد فقط على المحتوى المعلوماتي للخطاب، بل يستند أيضًا إلى عوامل سيكولوجية واجتماعية وأخلاقية تتجاوز البعد الإحالي الصرف.

في السياق العربي الإسلامي، اهتمّ علماء البلاغة بدراسة أساليب التأثير في الخطاب القرآني والشعري والخطابي، وطوّروا علومًا دقيقة في المعاني والبيان والبديع. فالجرجاني مثلًا أسّس نظرية النظم التي ترى أن بلاغة الكلام وتأثيره لا يكمنان في مفرداته بل في طريقة تأليف الكلمات وترتيبها وفق معاني النحو، مما يخلق تأثيرات دلالية وجمالية وإقناعية متفاوتة[17]. وقد أشار السكاكي في كتابه "مفتاح العلوم" إلى أن لكل مقام مقالًا، وأن البليغ هو من يراعي مقتضيات الأحوال في اختيار الأساليب والتراكيب المناسبة لتحقيق الغرض التواصلي الفعّال[18].

تطورت دراسة الحجاج (Argumentation) في العصر الحديث على يد باحثين أمثال شاييم بيرلمان (Chaïm Perelman) الذي طوّر نظرية الحجاج الجديدة (New Rhetoric) معتبرًا أن الخطاب الحجاجي يهدف إلى تحقيق الإذعان (Adherence) والموافقة لدى الجمهور، وليس بالضرورة إلى إثبات الحقيقة المطلقة كما هو الحال في البرهان المنطقي[19]. فالحجاج إذا، يعتمد على تقنيات مثل الاستدلال بالمثال، والقياس التمثيلي، والتفكيك والتركيب، والحجج القائمة على السلطة أو القيم المشتركة، وكلها آليات لغوية تسعى إلى التأثير في قناعات المتلقي وتوجهاته.

وقد أشار الشاعر العربي الحكيم أبو تمام إلى قوة التأثير البلاغي في أسلوب الكلام بقوله:

السَّيْفُ أَصْدَقُ أَنْبـــــــاءً مِنَ الكُتُبِ في حَدِّهِ الحَــدُّ بَيْنَ الجِدِّ واللَّعِبِ
بِيضُ الصَّفائِحِ لا سُودُ الصَّحائِفِ في مُتُــــــونِهِنَّ جَلاءُ الشَّكِّ والرِّيَبِ

فهو هنا لا يكتفي بالإخبار عن تفوق السيف على الكتب في الحسم والبيان، بل يوظّف الطباق والجناس والاستعارة لتعزيز أثر المعنى وتعميق

القناعة به في نفس المتلقي، وهنا تظهر فاعلية التكامل بين التبليغ والتأثير في الخطاب الشعري على وجه الخصوص.

4 – التفاعل الديالكتيكي بين التبليغ والتأثير:

1/4– التداولية اللسانية وتجاوز الثنائية الوظيفية:

شكّل ظهور التداولية اللسانية (Pragmatics) نقطة تحول في فهم العلاقة بين التبليغ والتأثير، حيث تجاوزت الثنائية الصارمة بينهما لتؤسس لرؤية تكاملية تعترف بالترابط العضوي بين البعدين. فالتداولية تدرس استعمال اللغة في السياق(Language in Context) ، مع الأخذ بعين الاعتبار نوايا المتكلمين والمقاصد التواصلية والظروف الاجتماعية والثقافية المحيطة بالخطاب[20]. وهذا يعني أن المعنى ليس معطى قبليًا كامنًا في الشفرة اللغوية نفسها، بل هو نتاج للتفاعل بين البنية اللغوية والسياق التواصلي والمعارف المشتركة بين المتخاطبين.

طوّر بول غرايس (Paul Grice) مفهوم الاستلزام الحواري (Conversational Implicature)الذي يوضّح كيف أن المتكلمين ينقلون معاني أكثر مما تدلّ عليه كلماتهم بشكل حرفي، وذلك من خلال الاعتماد على مبدأ التعاون (Cooperative Principle) وقواعد المحادثة الأربع: الكم والكيف والمناسبة والكيفية[21]. فحين يقول شخص "الجو بارد هنا"، قد يكون المعنى الحرفي هو مجرد الإخبار عن درجة الحرارة (تبليغ)، لكن المقصود الفعلي قد يكون طلبًا غير مباشر لإغلاق النافذة (تأثير). هذا التمييز بين المعنى الحرفي (Literal Meaning) والمعنى المستلزم Implicated) (Meaningيكشف أن الوظيفتين التبليغية والتأثيرية متداخلتان في معظم الاستعمالات اللغوية الفعلية.

كما أن نظرية الملاءمة (Relevance Theory) التي طوّرها دان سبربر وديردري ويلسون (Dan Sperber & Deirdre Wilson) قدّمت

تفسيرًا معرفيًا للتواصل اللغوي يقوم على فكرة أن المتكلمين يسعون إلى تحقيق أكبر قدر من التأثيرات المعرفية (Cognitive Effects) بأقل جهد معالجة ممكن[22]. وهذا يعني أن عملية فهم الخطاب ليست مجرد فك لشفرة لغوية آلية، بل هي عملية استدلالية معقدة يستنبط فيها المتلقي المقاصد التواصلية للمتكلم من خلال دمج المحتوى اللغوي مع السياق والمعلومات الموسوعية المتاحة له.

2/4- السياق والمقام: المحدِّدان الحاسمان للوظيفة اللغوية:

يُعدّ السياق (Context) بمختلف تجلياته اللغوية والموقفية والثقافية والإيديولوجية العامل الأساسي في تحديد غلبة وظيفة على أخرى في الخطاب. فالعبارة اللغوية الواحدة قد تؤدي وظيفة تبليغية صرفة في سياق معين، وتكتسب بعدًا تأثيريًا قويًا في سياق آخر. فحين يقول طبيب لمريض "ضغط دمك مرتفع"، يكون الغرض الأساسي هو التبليغ عن حالة صحية، لكن حين يقول المريض نفسه لطبيب آخر طلبًا لرأي ثانٍ، قد يكون الهدف هو إقناع الطبيب الثاني بخطورة حالته والحصول على علاج أكثر فعالية، وهنا يتداخل التبليغ مع التأثير بشكل لا يمكن فصله.

إن المقام الخطابي يتضمن عدة مستويات: المقام المادي الفيزيائي المتعلق بالظروف الحسية المحيطة بالتواصل، والمقام الاجتماعي المرتبط بالعلاقات بين المتخاطبين ومكانتهم الاجتماعية، والمقام النفسي المتعلق بالحالات الانفعالية والدوافع، والمقام المعرفي المرتبط بالمعارف والافتراضات المسبقة المشتركة[23]. كل هذه المستويات تتفاعل لتحديد الاستراتيجية التواصلية الأنسب والوظيفة الغالبة على الخطاب.

من جانب آخر، فإن النوع الخطابي (Discourse Genre) يفرض قيودًا وتوقعات معينة على طبيعة الوظيفة اللغوية الأبرز، فالخطاب العلمي يميل إلى التركيز على الوظيفة المرجعية والتبليغية من خلال السعي إلى الدقة والموضوعية وتجنب الأحكام القيمية والانفعالية، بينما الخطاب الإشهاري مثلًا

يركّز على الوظيفة الإقناعية والتأثيرية من خلال استثمار البعد الانفعالي والجمالي والإيحائي[24]. لكن حتى في الخطاب العلمي الذي يُفترض أن يكون محايدًا وموضوعيًا، تتسرب عناصر تأثيرية من خلال اختيار المصطلحات وطريقة بناء الحجج وترتيب المعلومات، مما يؤكد صعوبة تحقيق تبليغ خالص من أي بعد تأثيري.

إن المفكر الفرنسي ميشيل فوكو (Michel Foucault) قد أبرز في تحليلاته للخطاب أن اللغة ليست أداة محايدة، بل هي محمّلة بعلاقات القوة والهيمنة، وأن ما نعتبره تبليغًا موضوعيًا للمعرفة هو في حقيقته نتاج لأنظمة خطابية تعكس بنى سلطوية وإيديولوجية معينة[25]. فالشفرة اللغوية نفسها، بما تحمله من تصنيفات ومفاهيم ومجازات، تشكّل رؤيتنا للعالم وتوجّه تفكيرنا بطرق قد لا نعيها دائمًا، وهو ما يجعل التمييز الحاد بين التبليغ المحايد والتأثير الموجَّه أمرًا إشكاليًا يحتاج إلى نقد ابستمولوجي عميق.

5 – الأبعاد المعرفية والثقافية للشفرة اللغوية:

1/5– اللغة والإدراك: فرضية النسبية اللغوية:

تُعدّ فرضية النسبية اللغوية (Linguistic Relativity) أو ما يُعرف بفرضية سابير–وورف (Sapir–Whorf Hypothesis) من أهم النظريات التي تناولت العلاقة بين اللغة والفكر، حيث تذهب إلى أن بنية اللغة التي نستعملها تشكّل بصورة حاسمة طريقة إدراكنا للعالم وتصنيفنا للخبرة الإنسانية[26]. بمعنى آخر، فإن الشفرة اللغوية ليست مجرد وعاء محايد لنقل أفكار جاهزة، بل هي إطار معرفي (Cognitive Framework) يحدد إلى درجة معينة ما يمكننا التفكير فيه وكيفية تفكيرنا فيه.

فاللغات التي تمتلك تصنيفات لونية غنية تمكّن متحدثيها من إدراك الفروق الدقيقة بين الدرجات اللونية بشكل أفضل من متحدثي لغات تحتوي على عدد أقل من المصطلحات اللونية، واللغات التي تميّز قواعدها بين الأفعال

المتعدية واللازمة بطرق معقدة قد تدفع متحدثيها إلى إدراك العلاقات السببية والفاعلية بطرق مختلفة[27]. هذه الفرضية تطرح سؤالًا جوهريًا حول حيادية الشفرة اللغوية: هل يمكن أن نبلّغ المعنى نفسه بدقة عبر لغات مختلفة، أم أن كل لغة تحمل رؤية خاصة للعالم تؤثر في طريقة تمثيلها للمعاني والأفكار؟

رغم أن النسخة القوية من هذه الفرضية التي تزعم أن اللغة تحدد الفكر بشكل مطلق لم تعد مقبولة في الدراسات المعاصرة، إلا أن النسخة الضعيفة التي ترى أن اللغة تؤثر في التفكير وتوجّهه دون أن تحدده بشكل صارم تلقى قبولًا واسعًا، وهو ما تؤكده الأبحاث في علم اللغة النفسي (Psycholinguistics) وعلم اللغة المعرفي (Cognitive Linguistics) التي أظهرت وجود اختلافات في الأداء الإدراكي والذاكرة بين متحدثي لغات مختلفة في مهام معينة[28].

2/5- الشفرة اللغوية والهوية الثقافية:

تتجاوز الشفرة اللغوية كونها مجرد نظام للتواصل لتصبح حاملًا للهوية الثقافية (Cultural Identity) ومستودعًا للذاكرة الجماعية والقيم والمعتقدات. فكل لغة تحمل في مفرداتها وتعابيرها الاصطلاحية ومجازاتها تصورات ثقافية خاصة حول الزمن والمكان والعلاقات الاجتماعية والقيم الأخلاقية والجمالية[29]. واستعمال لغة معينة ليس مجرد اختيار محايد لوسيلة تواصل، بل هو موقف هوياتي وانتماء ثقافي له أبعاد رمزية واجتماعية عميقة.

في السياق العربي الإسلامي، ارتبطت اللغة العربية ارتباطًا عضويًا بالهوية الثقافية والدينية، فهي لغة القرآن الكريم ولغة التراث العلمي والأدبي الضخم الذي أنتجته الحضارة الإسلامية عبر القرون، مما جعلها ليست مجرد أداة للتواصل بل رمزًا للهوية وحاملًا لذاكرة حضارية غنية[30]. ولهذا السبب، فإن أي محاولة لتغيير الشفرة اللغوية أو استبدالها أو تهميشها لا تُفهم فقط كمسألة تقنية تواصلية، بل كتهديد للهوية والذاكرة الجماعية.

الخاتمة:

يتّضح من خلال هذا البحث أن الشفرة اللغوية تمثل نظامًا معقدًا متعدد الأبعاد يتجاوز بكثير مجرد كونه وسيلة محايدة لنقل المعلومات، فهي تجمع في تفاعل ديالكتيكي بين وظيفتي التبليغ والتأثير، بحيث يصعب الفصل التام بينهما في الممارسة اللغوية الفعلية.

وقد أظهرت المقاربة الابستمولوجية لهذه الإشكالية أن التصورات النظرية حول اللغة ووظائفها قد شهدت تطورًا ملحوظًا من النماذج الميكانيكية البسيطة التي اختزلت اللغة في بعدها الإحالي والتبليغي، إلى النماذج التداولية والتفاعلية المعاصرة التي تأخذ بعين الاعتبار الأبعاد السياقية والمقاصدية والتأثيرية للخطاب.

لقد توصّل البحث إلى مجموعة من النتائج أهمها:

أن التبليغ الخالص من أي بعد تأثيري يبقى مثالًا نظريًا يصعب تحققه بشكل كامل في الواقع، لأن كل عملية تواصلية تتضمن حتمًا اختيارات لغوية وأسلوبية تعكس موقف المتكلم ومقاصده التأثيرية، حتى وإن لم يكن واعيًا بها بشكل كامل.

كما أن السياق التواصلي والمقام الخطابي يلعبان دورًا محوريًا في تحديد الوظيفة اللغوية الغالبة، حيث تختلف الاستراتيجيات التواصلية باختلاف الأنواع الخطابية والعلاقات الاجتماعية بين المتخاطبين والغايات المرجوة من التواصل.

إن الشفرة اللغوية ليست محايدة ثقافيًا وإيديولوجيًا، بل هي محمّلة بتصورات ورؤى للعالم تؤثر في طريقة إدراكنا للواقع وتمثيلنا له، وهو ما يجعل مسألة الترجمة والتواصل بين الثقافات أكثر تعقيدًا مما تفترضه النماذج الإحالية البسيطة.

وأن نظرية الأفعال الكلامية والدراسات التداولية قد أظهرت بوضوح أن اللغة أداة للفعل والتأثير في الواقع الاجتماعي، وليست مجرد مرآة تعكسه بحياد.

وعلى هذا الأساس يجب تطوير مناهج تعليم اللغات لتأخذ بعين الاعتبار الأبعاد التداولية والتأثيرية للغة، وليس فقط الجانب القواعدي والمعجمي، بحيث يصبح المتعلمون أكثر وعيًا بالاستراتيجيات التواصلية المختلفة وبالعلاقة بين الشكل اللغوي والسياق والمقصد.

وذلك بتعميق البحث في مجال اللسانيات التطبيقية لدراسة آليات التأثير اللغوي في الخطابات المعاصرة، خاصة الخطاب الإعلامي والسياسي والإشهاري، بهدف تطوير الوعي النقدي لدى المتلقين تجاه الاستراتيجيات التلاعبية والإقناعية التي قد توظّفها هذه الخطابات.

إجراء الدراسات المقارنة بين اللغات والثقافات المختلفة لفهم أعمق للعلاقة بين الشفرة اللغوية والإدراك والهوية الثقافية، وهو ما يمكن أن يساهم في تحسين التواصل بين الثقافات وتجنب سوء الفهم الناتج عن الاختلافات اللغوية والثقافية.

إن هذا البحث يمكن أن يفتح آفاقًا لدراسات مستقبلية تتناول تأثير التحولات التكنولوجية المعاصرة، خاصة الذكاء الاصطناعي ووسائل التواصل الرقمي، على طبيعة الشفرة اللغوية ووظائفها التبليغية والتأثيرية في العصر الحديث.

المصادر والمراجع:

1 . آدم جان ميشال: اللسانيات النصية، مدخل إلى انسجام الخطاب، ترجمة: محمد خطابي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، سنة1999م.

2 . أرسطو: الخطابة، ترجمة: عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات، الكويت، سنة 2002م.

3 . أوستين جون لانغشو: نظرية أفعال الكلام العامة، كيف ننجز الأشياء بالكلام، ترجمة: عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، سنة1991م.

4 . إيكو أمبرتو: السيميائية وفلسفة اللغة، ترجمة: أحمد الصمعي، المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت، لبنان، سنة1992م.

5 . بالمر غاري: اللسانيات الثقافية، ترجمة: خليفة أبو بكر الأسود، دار الكتب الوطنية، بنغازي، ليبيا، سنة1996م.

6 . بيرس تشارلز ساندرس: تصنيف العلامات، ترجمة: فريال جبوري غزول، أنظمة العلامات في اللغة والأدب والثقافة، دار إلياس العصرية، القاهرة، مصر، سنة 1998م.

7 . بيرلمان شاييم: الحجاج، مدخل إلى الدراسات الحجاجية، ترجمة: محمد العمري، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، سنة 1999م.

8 . براون بينيلوبي وليفينسون ستيفن: الأدب، بعض العموميات في استخدام اللغة، ترجمة: تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، مصر، سنة1987م.

9 . الجابري محمد عابد: التراث والحداثة، دراسات ومناقشات، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، سنة 1991م.

10 . جاكبسون رومان: قضايا الشعرية، ترجمة: محمد الولي ومبارك حنون، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، سنة 1988م.

11 . الجرجاني عبد القاهر: دلائل الإعجاز، تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، مصر، ط3، سنة 1992م.

12 . دي سوسير فرديناند: علم اللغة العام، ترجمة: يوئيل يوسف عزيز، دار آفاق عربية، بغداد، العراق، سنة 1985م.

13 . راسل برتراند: فلسفتي، كيف تطورت، ترجمة: ذوقان قرقوط، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، العراق، سنة1990م.

14 . سبربر دان وويلسون ديردري: الملاءمة، التواصل والإدراك، ترجمة: سعيد حسن بحيري، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، مصر، سنة1995م.

15 . سيرل جون: العقل واللغة والمجتمع: الفلسفة في العالم الواقعي، ترجمة: سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، سنة1996م.

16 . السكاكي يوسف بن أبي بكر: مفتاح العلوم، تحقيق: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، سنة1987م.

17 . شانون كلود وويفر ورن: النظرية الرياضية للاتصال، ترجمة: حسين عيسى، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، مصر، سنة1993م.

18 . غرايس بول: دراسات في طريقة الكلمات، ترجمة: صابر الحباشة، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، سوريا، سنة1989م.

19 . فوكو ميشيل: حفريات المعرفة، ترجمة: سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط2، سنة1994م.

20 . فيتغنشتاين لودفيغ: رسالة منطقية فلسفية، ترجمة: عزمي إسلام، دار الآداب، بيروت، لبنان، سنة1985م.

21 . ليتش جيفري: مبادئ التداولية، ترجمة: عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، سنة1983م.

22 . ليفنسون ستيفن: التداولية، ترجمة: محمد يحياتن، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، سنة1983م.

23 . ليفنسون ستيفن: التنوع المكاني في اللغة والإدراك، ترجمة: عبد الرزاق بنور، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، سنة2003م.

24 . لوسي جون: التنوع اللغوي والفكر: نهج تطوري لمسألة اللغة والفكر، ترجمة: بشير العيسوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، سنة1992م.

25 . وورف بنجامين لي: اللغة والفكر والواقع، ترجمة: نهاد الموسى، جامعة اليرموك، إربد، الأردن، سنة1956م.

هوامش وإحالات:

[1]– ينظر، دي سوسير فرديناند: علم اللغة العام، ترجمة: يوئيل يوسف عزيز، دار آفاق عربية، بغداد، العراق، سنة 1985م، ص37.

[2]– ينظر، المرجع نفسه: ص(101–103).

[3]– ينظر، جاكبسون رومان: قضايا الشعرية، ترجمة: محمد الولي ومبارك حنون، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، سنة 1988م، ص(27–31).

[4]– ينظر، شانون كلود وويفر ورن: النظرية الرياضية للاتصال، ترجمة: حسين عيسى، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، مصر، سنة1993م، ص(11–15).

[5]– ينظر، إيكو أمبرتو: السيميائية وفلسفة اللغة، ترجمة: أحمد الصمعي، المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت، لبنان، سنة1992م، ص(45–47).

[6]– ينظر، بيرس تشارلز ساندرس: تصنيف العلامات، ترجمة: فريال جبوري غزول، أنظمة العلامات في اللغة والأدب والثقافة، دار إلياس العصرية، القاهرة، مصر، سنة 1998م، ص(139–142).

[7]– ينظر، إيكو أمبرتو: السيميائية وفلسفة اللغة، ترجمة: أحمد الصمعي، ص(78–81).

[8]– ينظر، راسل برتراند: فلسفتي، كيف تطورت، ترجمة: ذوقان قرقوط، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، العراق، سنة1990م، ص(201–203).

[9]– ينظر، فيتغنشتاين لودفيغ: رسالة منطقية فلسفية، ترجمة: عزمي إسلام، دار الآداب، بيروت، لبنان، سنة1985م، ص(45–49).

[10]– ينظر، جاكبسون رومان: قضايا الشعرية، ترجمة: محمد الولي ومبارك حنون، ص22.

[11]– ينظر، ليتش جيفري: مبادئ التداولية، ترجمة: عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، سنة1983م، ص(87–91).

[12]– ينظر، أوستين جون لانغشو: نظرية أفعال الكلام العامة، كيف ننجز الأشياء بالكلام، ترجمة: عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، سنة1991م، ص(14–18).

[13]– ينظر، المرجع نفسه: ص(108–110).

[14]– ينظر، سيرل جون: العقل واللغة والمجتمع: الفلسفة في العالم الواقعي، ترجمة: سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، سنة1996م، ص(12–20).

[15]– ينظر، أرسطو: الخطابة، ترجمة: عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات، الكويت، سنة 2002م، ص11.

[16]– ينظر، المرجع نفسه: ص(24–26).

[17]– ينظر، الجرجاني عبد القاهر: دلائل الإعجاز، تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، مصر، ط3، سنة 1992م، ص(81–85).

[18]– ينظر، السكاكي يوسف بن أبي بكر: مفتاح العلوم، تحقيق: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، سنة1987م، ص163.

[19]– ينظر، بيرلمان شاييم: الحجاج، مدخل إلى الدراسات الحجاجية، ترجمة: محمد العمري، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، سنة 1999م، ص(37–40).

[20]– ينظر، ليفنسون ستيفن: التداولية، ترجمة: محمد يحياتن، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، سنة1983م، ص(5–9).

[21]– ينظر، غرايس بول: دراسات في طريقة الكلمات، ترجمة: صابر الحباشة، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، سوريا، سنة1989م، ص(26–30).

[22]– ينظر، سبربر دان وويلسون ديردري: الملاءمة، التواصل والإدراك، ترجمة: سعيد حسن بحيري، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، مصر، سنة1995م، ص(119–124).

[23]– ينظر، براون بينيلوبي وليفينسون ستيفن: الأدب، بعض العموميات في استخدام اللغة، ترجمة: تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، مصر، سنة1987م، ص(74–78).

[24]– ينظر، آدم جان ميشال: اللسانيات النصية، مدخل إلى انسجام الخطاب، ترجمة: محمد خطابي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، سنة1999م، ص(39–42).

[25]– ينظر، فوكو ميشيل: حفريات المعرفة، ترجمة: سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط2، سنة1994م، ص(12–15).

[26]– ينظر، وورف بنجامين لي: اللغة والفكر والواقع، ترجمة: نهاد الموسى، جامعة اليرموك، إربد، الأردن، سنة1956م، ص(213–217).

[27]– ينظر، لوسي جون: التنوع اللغوي والفكر: نهج تطوري لمسألة اللغة والفكر، ترجمة: بشير العيسوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، سنة1992م، ص(89–92).

[28]– ينظر، ليفنسون ستيفن: التنوع المكاني في اللغة والإدراك، ترجمة: عبد الرزاق بنور، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، سنة2003م، ص(145–149).

[29]– ينظر، بالمر غاري: اللسانيات الثقافية، ترجمة: خليفة أبو بكر الأسود، دار الكتب الوطنية، بنغازي، ليبيا، سنة1996م، ص(25–28).

[30]– ينظر، الجابري محمد عابد: التراث والحداثة، دراسات ومناقشات، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، سنة 1991م، ص(57–60).